16 محرم الحرام 1431هـ - 02 يناير 2010م - العدد: 330-331

الوحي حقيقته ووظيفته..... (تتمة)

أهْبَبْتني، أي أما أيقظتني؟ ماذا قال؟

قال : إني كنت أقرأ سورة فما أحببت أن أقطعها، سورة من القرآن، يعني تعلقهم بالقرآن كان بصورة لا نستطيع تصور حقيقتها؛ لأنه تعلق وجداني رفيعٌ عال.

ثم قال ولَوْلا أمرٌ أمرنيه رسول الله ﷺ أن أحمي ثغرَه، لأتممتها، أو لقطع أنفاسي دُونها. سأبقى واقفا، إما أن أتمَّ السورة، وإما أن يقتلني وأموت وأنا أقرأ القرآن.

● **ثانيا** : المثال الآخر، مثال أُسَيْد بن حُضَيْر المشهور الأنصاري رضي الله عنه، هو مثال مشهور متداول، هو حينما كان يقرأ القرآن وحيدا بالليل، فأظلَّتْه غمامة من النور، ما يشبه الغمامة، وكان ابن له صغير ينام، قريبا من مربد فرسه، فحينما كان يقرأ هذا الصحابي أُسَيد، جعلت الفرس تجول تتحرك، فخاف على ابنه أن تدوسه الفرس، فسكت، فلما سكت سكنت الفرس، ثم عاد فقرأ فجالت الفرس، فسكت، فسكنت الفرس، ثم عاد فقرأ، فجالتها الفرس، فسكت فسكنت الفرس، هنالك رفع النظر من حيث لا يشعر إلى السماء، فرأى سُرُجاً من النور -جمع سراج- مصابيح كالثريا ترتفع في الفضاء بليل شيئا فشيئا فشيئا حتى غابت في السماء، فلما أصبح قصد رسول الله ﷺ وحكى له القصة وكان كلما حدثه بمقطع من القصة كان النبي ﷺ يقول له: اقرأ أُسَيد، يقول: فقرأت، فجالت الفرس، يقول له: «اقرأ أُسيْد، وهكذا كل مرة النبي ﷺ يقول له: اقرأ أسيد، فلما انتهى قال: تلك الملائكة نزلت تستمع الذكر، ولو بقيتَ تقرأ لأصبحتْ يراها الناس، أو بحيثُ يراها الناس، ما تستتر منهم»، أو كما قال ﷺ.

والحديثان ثابتان صحيحان كما يعلم أهل صناعة الحديث.

الأمثلة إزاء القرآن في الجيل أصحاب رسول الله كثيرة جدا، ولو قام أحد باستقرائها وتتبعها أنا على يقين بأنه سيجمع أكثر من مجلد من هذه العجائب والغرائب الصحيحة الثابتة.

ما الفرق بيننا وبينهم؟ القرآن هو القرآن، المشكلة هنا، النور يَجْلُبُ النور، حينما يقرأ الواحد من المسلمين القرآن باعتباره وحياً يشتعل القرآن بفتيل قلبه، ﴿مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب ذري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء﴾(النور : 35) -القرآن هكذا قال المفسرون- ﴿يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسسْه نار﴾ نار الإيمان، فإذا مسَّتْهُ؟ ﴿نورٌ على نور﴾، يشتعل الآن، ينقدح النور؛ لأن زيت القرآن البراقة قابلة للاشتعال، ولكن لابد من يَفْرِكُ الحجر الذي يُشْعِل، لابد من يَقْدَحُ الكبريت ليشعل الزِيت، وهذا إنما يقع في قلب العبد، ولذلك يكون للقرآن في القلْب بهذا المنهج ألم، يقل ﷺ : «شيَّبَتْني هود وأخواتها» فهذا دالٌ على المكابدة والمعاناة، وهو في كتاب الله، كثير من مثل قوله جل وعلا، ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾(الزمر : 22)، هذه القشعريرة دالة على صدمة، معروف هذا نفسيا وعصبيا، والإنسان حينما يتلقى تيارا كهربائيا يُصعَقُ به يُصدَم، ويُحدث في جسمه كله قشعريرة شديدة على مقدار الصدمة، آيات القرآن، وأحوال أصحاب رسول الله ﷺ صحيحة، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام من مثل قوله "شيَّبَتْني هودٌ وأخواتها" وغير ذلك كثير.

كل ذلك دال على أن هذا القرآن نورٌ لاهِبٌ، أو إن شئت أن تقول بلغة العصر تيارٌ كهربائيٌّ من عالم الروح لا من عالم المادة قطعا.

﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾(الشورى : 49) هو روح، فالقرآن روح، وهذا الروح نور، وهو نور لاهِبٌ حارق مؤلم، فإذا صبر الإنسان على ذلك تحول ذلك الألم إلى لذة، بنص القرآن، ﴿ثم تلين جلودُهُم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ من بعد ما اقشعرَّتْ، من بعد ما صُدمت من هذا التيار، الصبر على ذلك يُحَوِّلُ تلك الطاقة التي نزلت على القلب إلى لَذَّة.

> **العمران بمعناه الشمولي يتعلق بسلوك الإنسان كله، عمران المادة، وعمران الروح، الأخلاق عمران، السلوك الاجتماعي عمران، المسجد عمران، الصلاة عمران، ولذلك عبر الله عز وجل أو مدح الله الذين يَعْمُرون مساجد الله يعمرونها بالصلاة، يعمرونها بالروح، لا تبقى خَرِبَةً خاوية على عروشها**

ولم يكن عبثا أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا نزل عليه الوحي كَرِبَ -كما في صحيح البخاري- كرب لذلك، وارْبَدَّ وجهه، وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها حينما روت حديث يعني كيف يأتيك الوحي يا رسول الله ﷺ؟ قال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فينفصل عني وقد وعَيْتُ ما قال، أي الملَك، وأحياناً يتمثل لي الملَك رجلا فيحدثني فأعي ما يقول، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته في اليوم الشديد البرد يتفصَّدُ عَرَقاً، يعني العرق ينزل في اليوم الشديد البرد، معناه أن الجسم به حرارة عالية جداً، تجعله لا يشعر بالبرد وحسب، بل يشعر بحرارة مرتفعة في يوم القَرّ الشديد.

فهذه الحقيقة المفتاح، الوحْيُ هي مدار الأمر، ومدار الكلام، ومدار القضية في التعامل مع كتاب الله عز وجل.

لو يقرأ المؤمن آية واحدة، وآية واحدة فقط لكن بهذا المنهج الذي يوقظ الروح في القلب، ويوقظ النور في مشكاة القلب، لرأى عجبا، لرأى عجبا، ولذلك ثقُل على أصحاب رسول الله ﷺ، بل على رسول ﷺ أن ينزل عليه القرآن جملة واحدة ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبِّتَ به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾(الفرقان : 32) الطاقة البشرية لا تطيق هذا القرآنَ أن ينزل عليها جملةً واحدة، بل لو أُنزِلَ على الجبل لكان ما كان كما تعلمون ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا﴾(الحشر : 21) أي يتشقق من خشية الله.

فهذا النور، هذا الوحي حينما كان ينزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام، كان يحدث له ما يحدث، وكذلك كان أصحابه حينما يتلقونه، فرفقًا بالناس ورحمةً بهم أنزل الله عز وجل القرآن منجَّمًا آيات آيات، ليس فقط حتى يستطيعوا إنجاز التكليف - وهذا مقصود طبعا ومذكور في النصوص- ولكن أيضا حتى لا تحترق طاقاتهم، حتى لا تتحطم أبدانهم وأعصابهم؛ لأن القرآن ثقيل، ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾(المزمل : 4) **فإذا كابد العبد القرآن اشتعل هذا القرآن في قلبه، ورجع إلى أصله، كيف؟ يعني هذا القرآن حينما تكابده ولو جزءً ولو سورةَ الإخلاص ما شئت، ولو آيةً، تكابدها ترتيلا ومدارسة وتشذيبا وتهذيبا لزوائد القلب من الآثام والآفات وتحققاً بأخلاقها وأحكامها وحكَمِها، كلُّ ذلك مكابدة حينما يحصُل ذلك منك تَرجعُ الآيَةُ إلى طبيعتها، يرجع الوحْي إلى أصله، يرجع القرآن إلى مصْدره، وهو الوحْي.**

بمعنى أنه ينبثق النورُ الوحْي، وهذه الصفة الاسمية التي مازالت تصاحب القرآن ولن تزال تصاحبه إلى يوم القيامة فيرتفع من قلبك نور، يغمر كلَّ بدنك، عينيْك، أذنيْك، لسانكَ، كلَّ شيء كل شيء.

وتعلمون حديث الولاية في صحيح البخاري فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، ولئن سألني لأعطينه، بم؟ بأنه دَأَبَ وَكَابَدَ النوافل، وأمُّ النوافل صلاة الليل كما هو ثابت في كتب الصحيح.

في صحيح البخاري قول النبي ﷺ : «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»، وصلاة الليل إنما هي قرآن، تلاوة، ترتيل، ومكابدة ومناجاة مع الخالق، وخلوة مع الربّ، ونظر عميق إلى آفات النفس، تنكشف نفسك مرآةً بين يديك، فترى ثغراتها، وترى نقائصها، وترى الشوائب التي شابتها، فتقوم الآيات بوظيفتها من التطهير والتشذيب والقص، حتى ترجع النفس إلى فطرتها.

آنئذ وقد استنار البدن كله وهذه حقائق ليست خيالات، ليست تمثيلات، نور الروح، الروح نور، الروح نور، يرتفع ذلك النور من القلب كالحبل الأثير يرتفع في السماء شَيْئًا فشيا فشيئا حتى يتصلَ بالملأ الأعلى، في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوما وقد خرج عليهم في المسجد «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله؟»، قال لهم في البداية طرف الحديث «أبشروا أبشروا أليس تشهدون أن لا إله الله وأني رسول الله»، قالوا بلى يا رسول الله، قال: «فإن هذا القرآن سبَبٌ».

ولفظ "سبب" هنا في هذا السياق بمعنى الحَبْل، وهو معنى حقيقي، لكنه حبْلٌ من نور، حبل روحاني، «فإن هذا القرآن سببٌ، طرفه الأعلى بيد الله، وطرفه الأدنى بيد من تمسك به».

والتمسك أو التمسيك الذين يُمسِّكُون بالكتاب، يعني يُمَسِّك يقبض عليه كما يقبض أحدكم على الجمر، كما في الرواية الأخرى من الحديث.

وأيضا حديث الطبري الصحيح الإسناد من قول النبي ﷺ : «كتاب الله حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»، كل الناس يمكنه أن يصل قَلْبَه بالله، بشرط أن يوقد فتيل قَلْبِه، أن يُشْعِلَ مشكاة روحه، فيألم، ويجِد حَرَّ القرآنَ، ويقرأ القرآنَ الوحْيَ.

هذا العمقُ الغيبي الذي يصل العبد بالله، فإذا كان ذلك كذلك صار لهذا الوحي في القلب وظائفُ عُظْمى.

الآن نرجع إلى أنفسنا، وإلى حياتنا في زماننا هذا، أفرادا وجماعات ومؤسسات؛ لأن القرآن هو للجميع، يحل المشكلة الجزئية الصغيرة التي يعانيها الفرد في نفسه، أو في أسرته، ويحل المشكلات الكبرى على المستوى الحضاري؛ لأنه كلام رب العالمين.

وظائف الوحي

الوظيفة الأولى : وظيفة التعريف بالله :

فأول شيء يتحققه الإنسان، حينما يتحقق من معنى الوحي القرآن، أن القرآن يُعَرِّفُه بصاحبه -الله جل جلاله-.

هذا الذي يغيب عنا أيضا كثيراً ونحن نقرأ القرآن، صحيح نحن مؤمنون لا شك في هذا، وعلى يقين بأن هذا القرآن أنزله الله من فوق سبع سماوات على قلب رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، ولكننا نَنْسى أثناء التلاوة نَنْسى، يجب أن نتحقق من أن الله جل جلاله إذ نقرأ القرآن أنه سبحانه يتكلَّم.

لأن القرآن كلام الله، أنت تقرأ صحيح، لكن الله هو الذي يتكلَّم، ودليله من القرآن، ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مامنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾(التوبة : 6) حتى يسمع كلام الله ممن يسمعه؟ شخصٌ ما يتلوه، من الصحابة أو من المسلمين، بصفة عامة، في أي زمان أو مكان، ولكن ماذا يسمع؟ يسمع كلام الله، **فالقرآن الوحْي يُشعِركَ بهذه الحقيقة بقوة، فتشعر وأنت تقرأ القرآن بالخضوع لرب العرش، لرب المُلْكِ والملكوت، تتلقى الأمر والنهي، فيقع بقلبك مَوْقِعَ المقَصَّات، أو المقَاصّ، جمع مقص، يقطع الأشجار أو الأغصان الزائدة، ويهذب ويشذب ويُخَلِّقُكَ بأخلاق القرآن.**

يعني أن تتخلق بأخلاق القرآن وأنت

تتمة : ص 54